فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

خطت الدراسات الاجتماعية فى الخمسين سنة الأخيرة خطوات فسيحة : فانسمت سبلها ، وتعددت فروعها ، وتشعبت مناحيها ، واستطاعت أن تثبت أن لها — كسائر العلوم — موضوعاً محدوداً ، وطرقاً معينة ، ومبادئ ثابتة ، ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة ؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فناً بأسره فى مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين . فان جملة ما كتبه أفلاطون وأرسطو فى العصور القديمة ، وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافيا فى القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعاً بالمعنى الصحيح ، ولا يحوى آراء علمية ناضجة[1] . ولا ننكر أن عصر النهضة ألقى شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولفت الباحثين إلى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض ، وقد بدأ أثره الواضح فى القرن الثامن عشر إذ ظهرت مؤلفات مونتيسكيه وڤولتير وروسو[2] . ثم جاءت الثورة الفرنسية التى قلبت النظم المألوفة رأساً على عقب واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة العتيقة طرقاً مستحدثة ، فأنتجت بهذا ثورة أخرى فى الأفكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت[3] . بيد أن تكوين علم الاجتماع فى شكله الحاضر يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمدرسة ميل وسبنسر فى انجلترة ، وڤونت وڤجنر فى ألمانيا ، ودركيم وليڤى بريل فى فرنسا ، وأعمال السائحين والرحالة من انجليز وأمريكان وألمان أضافت إلى هذا العلم ثروة طائلة ، بل خلقته من عدم[4]

لم تقنع هذه المدارس بطريقة واحدة ، ولم تقف فى بحثها عند حد . فلجأ بعضها إلى التاريخ يشرح به ما غمض من أعمال الجمعية وأقوالها ، وإحساساتها ، وعقائدها . واتخذ بعضها من الأحصاء والتعداد وسيلة لتوضيح الظواهر الاجتماعية واستنتاج القوانين المسيطرة عليها . وأبت طائفة أخرى إلا أن تصعد بالاجتماع إلى مستوى العلوم الواقعية sciences positives فبنته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة . لذلك عمدت إلى دراسة الشعوب الهمجية المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها ، وتوصلت من ذلك الى نتائج سارة وشيقة للغاية[1] . ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيان انجليزيان معاصران ، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبا فى خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة

يضيق بنا المقام عن أن نترجم ترجمة كاملة لفريزر (Frazer) تلميذ جامعة جلسجو ، وأستاذ الاجتماع فى ليڤربول وكمبردج ، وأحد رجال القانون والمحاماة فى لندن[2] . نشأ هذا العالم متشبعاً — ككل أتباع ميل وسبنسر — بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة ؛ وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد إذا درست خصائص الشعوب المختلفة ، ولاسيما الهمجى منها . فعلى ضوء هذه الدراسة الموازنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التى مرت بها فكرة من أفكار الجمعية ، وأن نقف على منشأ هذه الفكرة وكيفية تطورها . وقد تخصص فريزر فى هذا النوع من البحث ، وتناوله من نواحٍ شتى فى أسلوب جذاب ، وعبارة عذبة ، وخيال رائع ، ومادة غزيرة تشهد باطلاع واسع وعمق كبير ؛ لهذا يعد اليوم — فى حق — من أكبر العلماء المبرزين فى خصائص الشعوب ethnographes[3] ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات فى رسومها وطقوسها لدى الشعوب القديمة والحديثة ؛ وله فى ذلك مؤلفات عديدة أهمها : التوتيمسم Totemism ، والغصن الذهبى The golden Bough ذلك الكتاب العظيم الذى ترجم كله أو أجزاء منه إلى الألمانية والفرنسية والايطالية[4] . وغنى عن البيان أن أبحاثاً كهذه تتصل اتصالا وثيقاً بالخرافة التى لبست ثوب الدين فى كثير من الجمعيات الانسانية

نستطيع أن نقول — دون أن نخشى أية معارضة — إن

(1) Hubert, Les sciences sociales.
(2) Id. Sociologie, p. 6,
(3) Maunier (R.), Introd. à la Sociologie, pp. 91 — 99.
(4) Külpe, Einleitung in die philosophie, 136 — 39.

(1) Hubert, Sociologie, 130 — 35.
(2) Ensy. Brit., t. IX. — Larousse, XXes., t. 3.
(3) Ensy. Italiana, t. XVI. pp. 44 — 45.
(4) Der grosse Brockhaus, VI, 554.

فريزر أضحى أستاذاً غير منازع فى موضوع الخرافة ؛ درسه فى رغبة أكيدة فأجاد درسه ، وقلبه على وجوهه العديدة فلم يدع فيه مجالاً لمن جاء بعده . لم يعن بالخرافات المشهورة فحسب ، بل تعداها إلى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب ؛ فهو إلى جانب دراسته للسحر والشعوذة وصكوك الغفران وما أشبهها ، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب [1] . وبالجملة ليس ثمت كتاب من كتبه إلا وفيه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع . ولئن كان قد أعلن إعلاناً كافياً عن مضار الخرافة وسيئاتها ، فهو لم ينس نفعها وحسناتها ؛ ولا ريب فى أنه أول اجتماعى أبان فى وضوح أثر الخرافة الصالح فى الجمعيات الانسانية . وقد وضع فى هذا — فضلا عن أبحاث جزئية مختلفة — كتاباً مستقلاً سماه : محامى الشيطان . L'avocat du diable [2] . ولهذا الكتاب من اسمه نصيب كبير ؛ فان مؤلفه يبدو فيه المحامى المدره الذى يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال ، ويبين مالها من يد فى تكوين بعض الأسس الاجتماعية . فرجل الدفاع فى محاكم لندن يزج بنفسه فى محكمة الآراء والنظريات لينصر فكرة أجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين ، مهمة شاقة ، وموقف دقيق للغاية ، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأى السائد ، ويخرج على المألوف المسلم به . غير أنه قد وفق الى حد كبير فيما حاوله ، ونهض بالخرافة من كبوتها ، وأثبت ما فيها من نواحى الخير . وما أبلغه حين يقول : « نحن مدفوعون الى اعتبار الخرافة خطأ فى ذاتها ، وشراً لاخير فيه ، وضرراً محقق النتائج . وفى الحق أنها أصل كثير من آلام هذا العالم ، فقد بددت ذخائر هائلة ، وضحت بأرواح لاحصر لها ، وأثارت حروباً شعواء ، وأوقعت الشحناء بين الأصدقاء ، وفرقت بين المرء وزوجه ، والأب وابنه ، مقطعة علاقاتهم بحراب حادة ، أو بما هو أضر منها ، وملأت السجون بالأبرياء ، والمستوصفات والملاجىء بالعجزة والمعتوهين ، وسحقت قلوباً عديدة ، وبلبلت نفوساً مطمئنة . ولما لم تقنع بايذاء الأحياء جاوزتهم إلى الأموات ، فهتكت سترهم ، ونبشت قبورهم ، وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدمى قلوب الأبناء والأعقاب ؛ صنعت الخرافة كل ذلك وأكثر منه ، بيد أن فى مقدورنا أن نقدمها اليكم فى صورة أليق ، وتحت ضوء أنسب . لاندعى أنا أهل للدفاع عن هذا « الشيطان » ، والظهور أمام هذا اللهيب الأزرق والغاز الخانق ، وإنما نحاول فقط أن نكون ما يصح أن يسميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن أكبر الخصوم شبهة ، سنعمل مستضيئين بأمثلة مختارة على البرهنة ، أو على الأقل ، على ترجيح هذه القضية . قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة باعتراف الجميع أو أغلب الناس على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفى بعض مراحل التاريخ [1] »

تخير فريزر بين هذه الأنظمة أربعة من أهمها ، وهى الحكومة ، والملكية الشخصية ، والزواج ، واحترام الحياة الانسانية ؛ وبذل غاية الجهد فى إثبات أن الخرافة ساعدت على تكوينها ودعمها مستعيناً فى كل ذلك بالواقع والتاريخ . فلاحظ فى دقة أن مهمة الحكومة ذللت لدى كثير من القبائل الهمجية المعاصرة بسبب الرأى القائل إن الحكام ينتسبون إلى طبقات سامية ، وينعمون بسلطان سحرى خارق للعادة ؛ وإذ كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون إبداء أية ملاحظة . فلدى سكان جزائر السود Mélanésie فى أفريقية يزعم الناس أن للرؤساء قوى غير طبيعية استمدوها من الملائكة والجن المتصلة بهم اتصالا وثيقاً . وفى هذا سر نفوذهم ؛ فمتى ضعفت هذه العقيدة فقد الرئيس كثيراً من سلطانه [2] . ويعتقدون كذلك أن الحاكم أو الوالى يستمر بعد موته فى سهره على رعاياه ، ويعاقبهم بالجدب والغرق والصواعق إن أخطأوا ولم يقدموا القرابين لجدثه [3] . ويعتبر الرؤساء السياسيون فى زيلندة الجديدة كآلهة أحياء مقدسة فى مختلف أجزائها بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها ، وإذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء ، سارع إلى عينيه فاقتلعهما وابتلعهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح وقوى خفية ؛ ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين

(1) Voir, The magic art and the evolution of kings, 1911.

(٢) تأسف لأنا لم نجد بين أيدينا أثناء كتابة هذه الكلمة النسخة الأصلية الانجليزية لهذا الكتاب لنعول عليها ؛ ولا يفوتنا أن نلاحظ أن ترجمته الفرنسية فى منتهى الجودة

(1) Frazer, L' avocat du diable, 1 — 2.

(2) Codrington, The Melanesians, 46.

(3) Frazer, op. cit., 9.

العضوين [١] ويقول بعض الأمراء الزيلنديين : « لا تظن أنى رجل وأنى من هذا العالم الأرضى ، كلا فانى نزلت من السماء حيث يسكن آبائى الآلهة ، وسأعود اليهم يوماً [٢] » . ويروون أنه بينما زيلندية تتذوق خوخة جبلة انتزعتها من سلة تحملها ، علمت أنها نبتت فى مكان مقدس ، فأسقط فى يديها وصاحت بالويل والثبور وأنها لابد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان المقدس ؛ وما أصبح الصباح إلا وقبضت روحها [٣] . ويعتقد سكان أفريقية الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم يتصرفون فيها كما يشاءون . وفى مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا الشمس ويخسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء ؛ لذلك يلجأ الأهلون اليهم إن ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض [٤]

لم يقف أمر هـذه العقائد الخرافية عند القبائل البدوية الموجودة فى أفريقية واستراليا وأمريكا ، فقد اعتنقها من قبل الشعوب المتحضرة القديمة . فقدماء المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ويصعدون بهم إلى أصل سماوى ، وإذا نقصت محاصلاتهم أرجعوا ذلك إلى غضب المليك عليهم [٥] . وفى قوانين مانو الهندية كتبت العبارة الآتية : « إن الملك بفضل سره الخارق للعادة ، نار وهواء ، وشمس وقمر [٦] » . وكان اليونان فى عهد هومير يعدون ملوكهم ورؤساءهم آلهة أو كالآلهة [٧] . وما لنا نذهب بعيداً وفى التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات ؟ فقد كان عامة الانجليز يستشفون بملوكهم إلى عهد قريب ، فاذا لمس الملك مريضهم برىء لساعته ، واستمرت هـذه الخرافة إلى أخريات القرن الثامن عشر إذ كان يعالج رويير الصـالح ، وأدوارد المعترف ، بعض المرضى بهذه الطريقة [٨] . ونرى فى فرنسا شيئاً من ذلك فى فجر الثورة وبعدها بعشرات السنين ؛ فان لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لمسوا آلاف المرضى لشفائهم [١]

هـذه الأمثلة القليلة تكفى للبرهنة على أن عدداً من القبائل والشعوب نظروا إلى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم إلى موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ترغم الرعية على اتباعهم والتعلق بأهدابهم ، وإذاً فقد ساعدت الخرافة ، فى بعض الشعوب وفى بعض الأزمنة ، على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية ؛ وفى هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الجمى بوجه عام

يتبع

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) Ibid, 144.

(1) Taylor, New-Zealand and its inhabitants, 134,352.
(2) Thomson, The Story of New-Zealand, I, 95.
(3) Brown, New-Zealand, 76.
(4) Frazer, The magic art, I, 342.
(5) Ibid, I, 418— Tiele, History of the Egyptian religion 103.
(6) The Laws of Manu, VIII, 5 — 8.
(7) Homère, Odysseé, II, 235.
(8) Crawfurd, The King's Evil, 11.

وزارة المعارف العمومية

اعلان مسابقة

عن الحاجة إلى كتاب فى المطالعة للمدارس الابتدائية

تعلن الوزارة عن حاجتها إلى كتاب فى المطالعة العربية لكل سنة من السنوات الأربع بالمدارس الابتدائية للبنين والبنات ، يستأنس فى وضعه بالمنهج المتبع فى هذه المدارس ، وآخر ميعاد لتقديم الكتب للوزارة هو ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ، والكتب التى يقع عليها الاختيار ستقررها الوزارة ابتداء من سنة ١٩٣٦ — ١٩٣٧ وتشترى حق تأليفها وفقاً للقرار الوزارى رقم ٣٧٥١ الذى يمكن طلبه من إدارة مخازن الوزارة أو الاطلاع عليه بها

والكتاب الذى تقرره الوزارة لمدارسها وتشترى حق تأليفه بعد أن تعدله لجنة الفحص تعديلاً ذا شأن ، سيخصم من مبلغ شراء حق تأليفه (المشار إليه بالقرار الوزارى) عشرون فى المائة تمنحها الوزارة مكافأة للجنة على عملها ، أما الكتاب الذى يتقرر بغير تعديل أو بتعديل غير ذى شأن ، فلا تمنح اللجنة مكافأة عنه

وهذه المسابقة لا تلزم الوزارة بشىء ما قبل الموظفين ، وهى تعتبر معدلة للاعلان السابق نشره متضمناً الحاجة إلى كتاب للسنة الثالثة وحدها ٣/٣